

فلسطينيو الداخل والخارج

في مؤتمر مدريد

مدريد - من ربي الحصري

عندما بدأ وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر جولاته في الشرق الأوسط بعد حرب الخليج، والتقى - أول مرة - طاقماً فلسطينياً من الأراضي المحتلة في مبنى القنصلية الأميركية في القدس الغربية، بدأ هؤلاء حديثهم بعبارة تكررت فيما بعد في كل اللقاءات التي تبعت، حتى أصبحت جزءاً من جدول أعمال كل اجتماع. أما العبارة، فكان فحواها: نحن لم نأت للقاءك كأفراد بل كمفوضين من ممثلنا الشرعي وأنت تعرفه، إنه منظمة التحرير الفلسطينية.

لم يبد الوزير بيكر اهتماماً خاصاً بهذه العبارة التي تحولت إلى ما يشبه "الكليشيه" وهو يفاوض محاوريه ويحاول إقناعهم بجدوى عدم تفويت القطار، الذي تحول فيما بعد إلى "باص" في تعبيرات بيكر. لكن الأکید أنه سمعها وفهمها وسجلها مساعده في تقريرهم لوقائع الاجتماع في كل مرة.

وفي الوقت ذاته، كان المسؤولون الإسرائيليون يحاولون الإثبات، في كل مرة، إنهم نجحوا بمفهومهم في إيجاد قيادة بديلة من داخل الأراضي المحتلة ليتحاوروا معها ويفاوضوها. وفي الوقت نفسه أيضاً، تجاهلوا رسائل "الفاكس" التي كانت تأتي بالتعليمات قبل كل اجتماع مع بيكر، وتذهب بتقرير الوقائع بعد كل اجتماع، كما صمّوا آذانهم عن الحوارات التي كانت تجري بين منزل فيصل الحسيني أو سيارته من جهة وبين مسؤول فلسطيني من الجهة الأخرى، والتي كانت تنقلها إليهم أجهزة التنصت للحوارات الهاتفية.

ولم تكن فرحة الإسرائيليين لتقاس عندما نجحوا في فرض وفد فلسطيني مفاوض، تتلاءم مقاييسه مع الأصول التي حددها بأنفسهم: سكان من الضفة الغربية وقطاع غزة، من دون القدس الشرقية، يقبلون مفاوضة إسرائيل على أساس مبدأ المسارين اللذين حددتهما الولايات المتحدة في طرحها للمسيرة السلمية. لكن، لا الأميركيون ولا الإسرائيليون كانوا يتوقعون، وهم يحضرون للحدث التاريخي المهم والأول في مدريد، إنهم إنما كانوا يحضرون لسقوط العديد من المحرمات في مدريد، وبالذات تلك التي تخص العلاقة بين الفلسطينيين تحت الاحتلال

وأولئك المسؤولين الذين كانوا يرونهم حتى الآن على شاشات التلفزة، ويعبرون عنهم بقولهم "هؤلاء قيادتنا".

في فندق "فكتوريا" في قلب العاصمة الإسبانية مدريد، حيث كان ينزل الوفد الفلسطيني من الأراضي المحتلة وشريكه الأردني، كانت اللقاءات بين فلسطينيي الداخل وأعضاء في منظمة التحرير تتخذ نمطاً تصاعدياً، حتى أصبحت في الأيام الأخيرة قبل مغادرة مدريد جزءاً من دورة الحياة في الفندق.

في اليوم الأول لوصول الوفد الفلسطيني إلى مدريد، كان المسؤولون الفلسطينيون من الخارج في استقباله. عبروا مدخل فندق فكتوريا كالأشباح. لم يتحدثوا إلى الصحفيين المتجمهرين أمام المدخل، والذين حال رجال الأمن دون دخولهم ردهة الفندق، باستثناء عبارات مقتضبة "على الماشي" مع من يعرفونهم منهم. لكن، وعلى الرغم من ذلك، لم تظهر عليهم الرغبة في كشف أمرهم على الملأ، حتى أن أحدهم أشار على صحفي تربطه به صداقة من بعيد بأن يصمت، واضعاً أصبعه على فمه.

وفي الأيام الأولى لافتتاح مؤتمر مدريد، كان رجل أربعيني، مستدير الوجه ويضع نظارات يتمشى حول فندق فكتوريا، يستقبل صحفيين ويتحدث إليهم في المقاهي والمطاعم المجاورة، ثم يمر كالشبح عبر بوابة الفندق، ويسير بشكل مستقيم ومباشر بخطى واثقة ومصممة نحو المصعد، من دون أن يلتفت يميناً أو يساراً، وقبل أن يتنبه أحد الصحفيين الفضوليين ليقول: أليس هذا أحد مستشاري رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات؟

وعلى الرغم من هذه البوادر المحدودة، فقد تجنب معظم مسؤولي منظمة التحرير الذين كانوا في مدريد، لكن في فندق يقع في أقصى الطرف الشمالي للمدينة، الإكثار من الظهور في فندق فكتوريا بصورة علنية في البداية. وفي إحدى المرات استعانوا بشخصية فلسطينية بباريسية غير ذات منصب رسمي في المنظمة، لتنتقل الرسائل بين الفندقين، فتستقل سيارة أجرة ثم تترجل منها على بعد خطوات من الفندق تقطعها في لمح البصر ليلاقيها أحد أعضاء اللجنة الاستشارية عند المدخل فيتسلم منها الرسالة المكتوبة، ثم تقفل عائدة من حيث أتت. فقد ثبت في مدريد أن تلك الطريقة لنقل الرسائل تفوق، في محافظتها على السرية، الهاتف و"الفاكس" وكل التكنولوجيا الحديثة.

مع الوقت، أصبحت الاجتماعات المختلطة بين الفلسطينيين في فندق فكتوريا تتخذ شكلاً طبيعياً، لكن من دون صحافة أو عدسات تصوير تلفازية، أي من دون شهود. حتى أن أحد أعضاء الوفد الفلسطيني من الأراضي المحتلة اعترف، في إحدى الجلسات مع الصحافيين في ردهة الفندق، بأنه حضر اجتماعاً في الغرفة "٢٠٥" شارك فيه أشخاص مهمون في منظمة التحرير، لكنه استدرك قائلاً: "لكن لم نتحدث معاً". واحترار مستمعوه فيما إذا كانت تلك نكتة أم أنه قصد بها الإقناع فعلاً. ومن طرفة التحادث من دون التحادث فعلاً، أو الالتفاف على الحوارات المحرمة، رواية ترددت في مدريد في أكثر من مجلس، والأكيد أنها وصلت إلى فندق "برينسيذا" حيث كان ينزل الوفد الإسرائيلي. وتدور هذه الرواية في شأن حوار دار بين وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر والمستشار السياسي لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية نبيل شعث. وتقول إحدى صيغ هذه الرواية أن الحوار كان في الواقع بين بيكر وعرفات. وفي التفاصيل أن المتحدث باسم الوفد الفلسطيني، الدكتورة حنان عشاوي، كانت تمسك في إحدى المرات بسماعتي هاتف على أذنيها، تحادث بوحدة منهما أحد مساعدي بيكر، دينيس روس، وتحادث نبيل شعث بالأخرى، في الوقت الذي كان روس يرد عليها بإحدى سماعتين ويستمع بسماعة أخرى إلى تعليمات بيكر. وربما كان شعث أيضاً يستمع إلى عرفات بإحدى سماعتين، ويمرر الرسالة إلى عشاوي بسماعة أخرى.

طبعاً، جرت عدة لقاءات "سرية" بين أعضاء الوفد الفلسطيني ومسؤولي منظمة التحرير في مدريد. لكن أحد اللقاءات المميزة، قبل أن يقفل الوفد عائداً إلى الأراضي المحتلة، كان ذلك الذي جرى بين أعضاء في المنظمة ومجموعة من صحافيي الداخل الذين كان بعضهم يلتقي، أول مرة، مسؤولين على هذا المستوى أو بهذه الصفة. في ذلك اللقاء، سقطت المحرمات وتبعثر قانون مكافحة "الإرهاب" الذي أقره الكنيست الإسرائيلي سنة ١٩٨٦، والذي يحظر لقاء مسؤولين في منظمة التحرير. تبخرت الخشية والريبة، ولم يخطر ببال أي منهم أجهزة التنصت والعدسات الخفية وكل ما له علاقة بأعمال التحري التي قد تخطر ببال أي منهم لو مرّ في إحدى العواصم الأوروبية، أمام بوابة كتب فوقها "سفارة فلسطين" أو "مكتب منظمة التحرير الفلسطينية". كان اللقاء، بأبسط العبارات، طبيعياً بحيث بدأ بعضهم يشكو إلى المسؤول الإعلامي في المنظمة أوضاع العمل الصعبة في الأراضي المحتلة، وظلم ذوي القربى من الفلسطينيين.

وبانتهاء مرحلة مدريد، كان التداخل واضحاً بين أعضاء الداخل والخارج، ولم يكن يُتخذ قرار إلا ولمنظمة التحرير يد فيه. لم تكن المنظمة قادرة على فرض نفسها بالاسم على طاولة المفاوضات، أو في قاعدة قصر الشرق. وبدلاً من ذلك برز فلسطينيو الداخل في تبادل متناسق، يتحدثون باسم الشعب الواحد، تحت الاحتلال وفي الشتات. ومع ذلك، فلا الأميركيون ولا الإسرائيليون يستطيعون إعادة عجلة الزمان إلى الوراء، بعد أن جمعوا بأيديهم قيادة الداخل وقيادة الخارج في غرفة واحدة، وأسقطوا المحاذير والممنوعات. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>